رسالة

الشيخ حامد الغزالي في غرور الناس

نفعنا الله بها آمين وإلى جميع المسلمين أجمعين

حققها وعلق عليها

نهاد حناوي



منشورات
دار القلم العربي بحلب


رسالة
الشيخ حامد الغزالي
في
غرور الناس

رسالة
الشيخ حامد الغزالي
في
غرور الناس

نفعنا الله بها آمين وإلى جميع المسلمين أجمعين

حققها وعلق عليها
نهاد حساوي

دار القلم العربي بحلب



الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف: ٢١٣١٢٩ - ص.ب: ٧٨ - تلكس: ٣٣١٦٩٢ ريفكو

مطبعة الصباح

دمشق - هاتف ٢٢٢١٥١٠

عدد النسخ (١٠٠٠)

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، خير المرسلين الذي كان لنا ومازال أسوة حسنة ، نقتدي بأقواله وأفعاله التي إن تمسكنا بها قادتنا إلى برِّ الأمان ، وجعلتنا من أهل الجنة مع الصالحين والصديقين رضوان الله عليهم ، آمين .

وبعد :

هذه رسالة الشيخ الإمام الغزالي حجة الإسلام أبو حامد بن محمد ، التي أخرجها إلى النور السيد الأستاذ نهاد حناوي برغبة من دار القلم العربي ، لتضيء درب المؤمنين وتبعدهم عن الزلل والغرور ، والعياذ بالله ، هذا الغرور الذي إذا أصاب الإنسان قاده إلى التهلكة .

وقد تضمنت هذه الرسالة فصولا خمسة :

تحدث الإمام الغزالي في الفصل الأول عن غرور الكافرين الذين تلبسهم الشيطان ومثالهم قول أحدهم عندما دخل جنته " ما أظن هذه تبيد أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا " .

وفي الفصل الثاني تحدث الإمام الغزالي رحمه الله عن غرور العصاة من المؤمنين الذين تفاءلوا بعفو الله ورحمته ، إلا أنهم أهملوا الأعمال الصالحة .

كما تحدث الإمام الغزالي في الفصل الثالث رحمه الله عن غرور طوائف من الناس لهم طاعات كما لهم معاص وذنوب إلا أن كفة ذنوبهم ترجح كفة طاعاتهم.

وتحدث الإمام الغزالي في الفصل الرابع عن أولئك الذين يظنون أنهم يقومون بأعمال الخير والبر أكثر مما يقومون بأعمال السوء والمعصية .

أما الفصل الخامس والأخير فتحدث فيه الإمام الغزالي عن أصناف المغرورين وأقسام كل صنف .

وقانا الله وإياكم من الغرور وجعلنا من الصالحين الأبرار الذين يعملون ولايرجون سوى طاعة الله ومغفرته ، وهدانا الله عز وجل إلى الصراط المستقيم ، وأبعدنا عن الغرور في الحياة الدنيا . يقول الله عز وجل (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور) .

وصلى الله على سيدنا محمد خير البشرية ومعلم الإنسانية فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا جلس بين أصحابه لايكاد يميزه أحد .

زهير مصطفى يازجي

بسم ا لله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الغزالي الإمام ، حجة الإسلام ، أبو حامد بن محمد . نفعنا ا لله بـــه :

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على خير خلقه سيدنا محمد صلى ا لله عليه وسلم .

اعلم أن الخلق قسمان ، مكلف ومهمـــل (١)

---

(١) مهمل هو الذي رفع عنه التكليف وهو أحد أصناف ثلاثة : الصبي والنائم والمجنون : وذلك من حديثه صلى ا لله عليه وسلم " رفع القلم عن ثلاثة : عن الصبي حتى يحتلم وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يعقل " . رواه أبو داوود وغيره. =

فالمكلف ، إما مؤمن وإما كافر(١) .

والمؤمن قسمان ، طائع وعاص . وكل واحد من الطائعين والعاصين ينقسم الى قسمين : عالم وجاهل .

= وقوله يحتلم : أي يبلغ . وماسوى هذه الأصناف الثلاثة. يدخل في نطاق المكلفين الذين ذكرهم حجة الإسلام . وأخضعهم لتصنيف آخر هو من صلب كتاب الله عز وجل .

(١) كافر: هنا أجمل تحت كلمة الكافر كلا من : المنافق والكافر صراحة والذين ذكرهما الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز بقوله في صدر سورة البقرة :" إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ختم الله على قلوبهم ..." . =

ثم رأيت الغرور لازما لجميع المكلفين المؤمنين والكافرين إلا من عصمه الله تعالى . وأنا بحمد الله أكشف غرورهم، وأبين العلة فيه وأوضحه غاية الايضاح وأبينه غاية البيان بأوجز مايكون من الإشارات .

= وأما المنافقين ففي قوله تعالى :" ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وماهم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا ومايخادعون إلا أنفسهم ومايشعرون ...". وأما المؤمنين ففي قوله تعالى : " الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك ومأأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ".

والمغرور من الخلق ماعدا الكافر أربعة أصناف: صنف من العلماء ، وصنف من العباد ، وصنف من أرباب الأموال ، وصنف من المتصوفة . وأول مانبدأ به غرور الكفار : وغرورهم قسمان : قسم غرته الحياة الدنيا ، وقسم غره با لله الغرور (١) .

أما الذين غرتهم الحياة الدنيا . فهم الذين قالوا: النقد خير من النسيئة . والدنيا نقد ، والآخرة نسيئة.

---

(١) وذلك لقوله تعالى : " فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم با لله الغرور " سورة لقمان آية(٣٣) وذلك أنه تبارك وتعالى جعل الغرور يتأتى . إما من الحياة الدنيا وإما من الغرور . أما الحياة الدنيا فهي في غنى عن التعريف وأما الغرور فهو إما إنسي كالكافرين والظالمين وإما جني كالشيطان " ومايعدهم الشيطان إلا غرورا " . سورة النساء (١٢٠) .

والنقد خير من النسيئة ، ولـذة الدنيا يقين ولـذة الآخرة مشكوك فيها فلا نترك اليقين بالشك . وهذا قياس إبليس لعنه ا لله في قوله : " أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين (١) ". فظن أن الخير في النسيئة.

وعلاج الغرور شيئان : إما تصديق وهو الإيمان وإما برهان . أما التصديق فهو أن يصدق به سبحانه وتعالى في قوله : " وما عند ا لله خير وأبقى للذين آمنوا

---

(١) سورة ص:٧٦ في المخطوطة: "أنا خير منه خلقتني من " فقط.

وعلى ربهم يتوكلون (١) وأن يصدق الرسول فيما جاء به . وأمـا البرهان : فهو أن تعرف وجه فساد قياسـه ، (وفيه أصلان أحدهمـا): أن (٢) الدنيـا نقـد والآخـرة (نسيئة . وهذا صحيح (٣)). والآخر قوله : النقد خير من النسيئة وهذا محل التلبيس .فليس الأمر كذلك ، بل إن النقد مثل النسـيئة في المقـدار والمقصـود فهـو خـير . وإن كان أقل منه فالنسيئة خير منه .

---

(١) سورة الشورى : ٣٦ . في المخطوطـة : " ومـا عنـد الله خير وأبقى وما الحياة الدنيا إلا متاع الغـرور " والصحيـح ماذكر أعلاه .

(٢) - (٣) مابين قوسين ليس في المخطوطة وإنما وضـع لإتمـام المعنى .

ومعلوم أن الآخرة أبدية والدنيا غير أبدية . وأما قوله : ولذة الدنيا يقين . والآخرة مشكوك فيها فهذا أيضا باطل . بل ذلك يقين عند المؤمن . واليقين مدركان :

أحدهما الايمان والتصديق على وجه تقليد (١) الأنبياء والعلماء كما يقلد الطبيب الحاذق في الدواء .

---

(١) وفي هذا المعنى يقول صاحب الجوهرة :

إذ كل من قلد في التوحيد إيمانه لم يخل من ترديد

ففيه بعض القوم يحكي الخلفا وبعضهم حقق فيه الكشفا

فقال إن يجزم بقول الغير كفى وإلا لم يزل في الضير

وعلق عليه الصاوي بقوله : إن من عرف ا لله بالدليل ولو جمليا . ولو لم يكن باصطلاح أهل الكلام فهو مؤمن اتفاقا ومن عرفه بلا دليل أصلا بل بالتقليد ففيه ستة أقوال: =

والمدرك الثاني : الوحي للأنبياء والإلهام للأولياء ولا تظن أن معرفة النبي صلى ا لله عليه وسلم لأمر

= وقد أوردها الصاوي وعلق على أحدها قائلا: والحق الذي عليه المعول : أنه مؤمن عاص بترك النظر إن كان فيه أهلية . ولكن هناك قول أورده وهو لايبعد عن الذي ذكر بل يزيد عليه في أنه أقرب إلى القلب والعقل معا . وهو قول غالب السادة الصوفية وفيه : إن النظر حرام وهو مذهب أغلب الصوفية . إنهم يقولون . متى غاب حتى يستدل عليه ومتى خفي حتى تكون الآثار تدل عليه وذكر ابن عربي أقساما خمسة للإيمان : ١- إيمان تقليد ، ٢- إيمان علم ، ٣- إيمان عيان ، ٤- إيمان حق ، ٥ - إيمان حقيقة . فالقسمين الأولين ينطويان تحت المدرك الأول الذي ذكره حجة الإسلام . وأما الثلاثة الباقية فتندرج تحت المدرك الثاني وهو الذي يختص به الأولياء والأنبياء.

الآخـــرة ولأمـــور الدنيـــا تقليـــد لجـــبريل عليـــه السلام . فإن التقليد ليس بمعرفة صحيحة بل هو اعتقاد صحيح ، والنبي صلى الله عليه وسلم حاشاه من ذلـك. بل قد انكشفت له الإشارة وشاهدها بنور البصيرة كما شاهدت أنت المحسوسات بالعين الظاهرة .

– الفصـــل الأول –

والمؤمنون بألسنتهم وعقائدهم إذا ضيعوا أوامـر ا لله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة وتلبسوا بالشهوات فهم مشاركون الكفار في هذا الغرور لأنهم آثروا الدنيا على الآخـرة فهـذا معنـى الغـرور بالحيـاة الدنيـا للكـافرين والمؤمنين جميعا .

فأمـا غـرور الكـافرين بـا لله فمثـال قـول بعضهـم بألسنتهم أنه لو كان لله من معاد . فنحن أحق بـه مـن غيرنا . كما أخـبر ا لله تعـالى عنهـم في سـورة الكهـف حيث قال أحدهم : " ماأظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربـي لأجـدن خـيرا منهـا

منقلبا " (١) . وسبب هذا الغرور قياس من أقيسة إبليس لعنه الله تعالى وذلك أنهم ينظرون الى نعم الله

---

(١) سورة الكهف (٣٤ – ٣٥) . قال صاحب الحكم . " خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه أن تكون ذلك استدراجا "سنستدرجهم من حيث لايعلمون ". وهذا الذي حصل بأجلى صورة مع كل طواغيت الأرض إلى زمننا هذا حيث تمثلت هذه الطواغيت في صورة أشخاص وفي صورة دول متجبرة وفي صورة أفكار هدامة . فلا نتصور أن حلمنا كحلم الله معهم فإنما يمد لهم ليزدادوا طغيانا ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر وهذا أشد إمعانا في التعذيب قال تعالى : " فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم ملبسون " . ومن هذا القبيل قول الشاعر : وأعظم شيء حين يفجؤك البغت .

عليهـم في الدنيـا فيقيسـون عليهـا نعيــم الآخــرة مــرة وينظرون مرة أخرى إلى تأخير العذاب عنهــم في الدنيـا فيقيسون عليـه عـذاب الآخـرة . كمـا أخـبر ا لله تعـالى عنهم إذ يقولون : " ويقولـون في أنفسـهم لـولا يعذبنـا ا لله بما نقول "(١) .

---

(١) سورة المجادلة ٢ : وقد غاب عن أولئك قول ا لله تعالى : ولاتحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خـير لأنفسـهم . إنمـا نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذا ب مهين " . وقوله تعالى : سنستدرجهم من حيث لايعلمون "وهـذا الاسـتدراج إنمـا يكون في كون المحنة في عين المنـة . فهـذا الصنـف يشـهد المنة ويغيب فيها وينسى نفسه ويشهد توالي الإحسان إليـه ويحجب عــن تـوالي أخـذ نعمـة شـهود محسـن الإحسـان ويحجب عن شكر واهب النعمة ومؤخر النقمــة .

ومرة ينظرون الى المؤمنين وهم فقراء فيزدرونهم ويستحقرونهم فيقولون : " أهؤلاء من الله عليهم من بيننا "(١) .

ويقولون " لو كان خيرا ماسبقونا إليه (٢) " وترتيب القياس الذي نظمه في قلوبهم أنهم يقولون قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا (٣) وكل محسن فهو محب،

---

(١) الأنعام آية (٥٣) .

(٢) سورة الأحقاف (١١). وأمثال أولئك قد غص بهم مجتمع المسلمين بدافع من الغرور والتكبر على خلق الله تعالى وبدافع التنقيص والتقليل من شأن الآخرين حسدا وضغينة حتى استوى في ذلك الوباء : الجاهل والعالم والعامي وطالب العلم .

(٣) في المخطوطة كلمة (الآخرة) وماذكر أعلاه هو الصواب .

فإنه محسن ، وليس كل محسن محبا ، بل يكون محسنا ولايكون محبا ، بل ربما يكون الإحسان سبب هلاكه على التدريج . وذلك محض الغرور با لله تعالى (١) ولذلك قال النبي صلى ا لله عليه وسلم : " إن ا لله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه " (٢) وكذلك

---

(١) وقد يغتر المسلم بأمور صورتها من النعم الأخروية وباطنها حظوظ النفس وطلب شكر الناس والثناء عليه فمن أولئك من يغتر بصلاته فيحسب نفسه صاحب حظوة عند ا لله تعالى . فتسوء أخلاقه مع خلق ا لله وهو يربو بنفسه عنهم معتقدا الخيرية لنفسه عليهم . فهذا من دركات الهلاك الأولى .

(٢) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد مرفوعا . وقد ورد في المخطوطة بلفظ مع بياض قبل الكلمة الأولى " يحمي =

كان أرباب البصائر . إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا. وإذا أقبل عليهم الفقر فرحوا وقالوا مرحبا بشعار الصالحين وقد قال الله تعالى : " فأما الإنسان إذا ماابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن . وأما إذا ماابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن "(١). وقال تعالى : " أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم في الخيرات ..."(٢) . وقال تعالى : " سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين " (٣) . وقال تعالى : " فلما نسوا

= عبده من الدنيا كما يحمي " أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه " ورواه الترمذي .

(١) سورة الفجر آية (١٥ – ١٦) .

(٢) سورة المؤمنون آية (٥٥ – ٥٦) .

(٣) سورة القلم آية (٤٤ – ٤٥) .

ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذافرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون"(١). إلى قوله : الظالمون إلى غير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم (٢) .

فمن لم يؤمن بالله لم يأمن من هذا الغرور ، ومنشأ هذا الغرور . الجهل بالله تعالى وبصفاته . فإن من عرف الله لم يأمن مكره . وينظر إلى فرعون وقارون وهامان والنمرود وماحصل لهم مع ماأعطاهم الله تعالى من المال . وقد حذر الله تعالى مكره فقال :

---

(١) سورة الأنعام آية (٤٤) .

(٢) اضافة ليست في المخطوطة ليستوي السياق .

" فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون (١). وقال الله تعالى : " ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين(٢) " . وقال تعالى : " إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا "(٣) . فمن أوتي نعمة . فليحذر أن تكون له مكرا منه تعالى وكيدا(٤) .

---

(١) سورة النمل (٥٥) .

(٢) سورة آل عمران (٥٤) .

(٣) سورة الطارق (١٥) .

(٤) ومن قبيل هذا الكيد أن يغتر الإنسان بنعمة لابد له فيها وفي اكتسابها كاغترار إبليس بخلقه من نار . فقال مبررا مخالفته ومعصيته لأمر ربه بالسجود لآدم . (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) وكذلك من الناس من يغتر بجسم أو نسبة أو جاه وينسى أن الله أوحى =

= إلـى نبيه صلى الله عليه وسلـم (إن الله لاينظـر إلى أجسامكم ولا إلى صوركـم ولكـن ينظـر إلى قلوبكـم وأعمالكم). وقد أوصى الحبيب الأعظم صلـى الله عليـه وسلم فقال : (لاأغني عنكم من الله شيئا لايـأتيني النـاس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم .

- الفصل الثاني -

وأما غرور العصاة من المؤمنين فقولهم : إن الله كريم رحيم . وإنا نرجو عفوه . فاتكلوا على ذلك . فأهملوا الأعمال وذلك من قبل الرجاء (١) فإنه مقام محمود في الدنيا ، وإن رحمة الله واسعة ونعمته شاملة وكرمه عميم . وإنا موحدون مؤمنون نرجوه بوسيلة الايمان والكرم والإحسان . وربما كان منشأ رجائهم

---

(١) قال صاحب الحكم : (الرجاء ماقارنه عمل وإلا فهو أمنية). أما الرجاء : فهو تعلق القلب بمطموع يحصل في المستقبل مع الأخذ في العمل المحصل له وأما الأمنية : فهي اشتهاء وتمن لايصحبه عمل . قاله بعض العلماء . وقال معروف الكرخي : (طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب وارتجاء رحمة من لايطاع . جهل وحمق) .

التمسك بصلاح الآباء والأمهات . وذلك نهاية الغرور .

فإن آباءهم مع صلاحهم وورعهم كانوا خائفين ، ويظهر قولهم الذي سول لهم الشيطان : أن من أحب إنسانا أحب أولاده وأن الله تعالى قد أحب آباءكم فهو يحبكم فلا تحتاجون الى الطاعات فاتكلوا على ذلك واغتروا با لله و لم يعلموا أن نوحا عليه السلام أراد أن يحمي ابنه في السفينة فمنع وأغرقه الله بأشد ماأغرق به قوم نوح . وأن نبينا صلى الله عليه وسلم استأذن ربه في زيارة قبر أمه وفي الاستغفار لها . فأذن له في الزيارة و لم يأذن له في الاستغفار . ونسوا قوله تعالى : " ولا تزر وازرة وزر أخرى " (١) . وقوله تعالى : " وأن

---

(١) سورة الأنعام : (١٦٤)

ليس للإنسان إلا ماسعى (١) . وأنه من ظن أن بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه . ويروي بشرب

---

(١) سورة النجم :(٣٩) ويقاس على الأهل والأولاد والآباء من كان في هذه الأيام على قرب لصيق بمشايخ التربية والسلوك فيحسب قربه المكاني منه قربة له من ا لله . وقد سبق العلم بحال عبد ا لله بن أبي بن سلول ، رأس المنافقين الذي كان يزاحم على مجاورة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في المجلس . وهو الذي أخذ مكانه في الدرك الأسفل من النار وذاك أويس القرني الذي لم ير رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ومع ذلك فإن حبه للنبي صلى ا لله عليه وسلم جعله مقدما على عم الرسول صلى ا لله عليه وسلم أبي لهب الذي تبت يداه والذي سيصلى نارا ذات لهب حتى قال الرسول صلى ا لله عليه وسلم لسيدنا عمر وعلي : اذا رأيتما أويسا فاطلبا منه الدعاء .

أبيه، فالتقوى فرض عين فلا يجزي فيه والد عن ولده شيئا . وعند الله جزاء التقوى يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، إلا على سبيل الشفاعة ونسوا قوله عليه الصلاة والسلام : " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله(١) .

---

(١) وردت في المخطوطة كلمة (والأحمق) . بدلا من كلمة (والعاجز) . وقد رواه كما ذكر في السياق أعلاه. الترمذي وقال حديث حسن . وأخرجه الحاكم في مستدركه وصححه على شرط البخاري وأخرجه أحمد بن حنبل في مسنده وابن ماجه وفي سنده أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني وهو ضعيف . وكان قد سرق بيته فاختلط . وقال عنه الذهبي : لا والله أبو بكر رواه.

وقوله تعالى : " إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله . والله غفور رحيم "(١). وقال تعالى : " جزاء بما كانوا يعملون " (٢) . وهل يصح الرجاء إلا أن يتقدم عمل . فان لم يتقدم عمل فهو غرور لامحاله . وإنما ورد الرجاء لتبريد حرارة الخوف واليأس لتلك الفائدة نطق به القرآن وللترغيب في الزيادة .

---

(١) سورة البقرة آية (٢١٨) .

(٢) سورة الواقعة آية (٢٤) .

- الفصل الثالث -

ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص ، إلا أن معاصيهم أكثر وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنهم ترجح كفة حسناتهم ، مع أن مافي كفة سيئاتهم أكثر، وهذا في غاية الجهل ، فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون مايتناوله من أموال الناس والشبهات أضعافه ، وهو كمن وضع في كفة الميزان عشرة دراهم ووضع في الكفة الأخرى ألفا وأراد أن يميل التي فيها العشرة وذلك في غاية الجهل(١).

---

(١) وهنا لابد من التفريق بين حقين منوطين بكل مسلم بالغ مكلف الحق الأول : لله تعالى والحق الثاني : للخلق، =

= أما حق الله تعالى على العبد فهو مبني على المسامحة ومن هنا لايمكن أن تميل كفة الصدقات على كفة السيئات فيها حقوق الخلق المسلوبة والمغتصبة من قبل ذلك المتصدق بل حاله هو حال ذلك الرجل الذي ذكره صلى الله عليه وسلم في ذلك الحديث فقال : (إن الله طيب لايقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر المرسلين فقال : ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم . وقال : ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم . ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام ، وغذي بالحرام . فأنى يستجاب لذلك ". رواه مسلم والترمذي .

- الفصل الرابع -

ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه ، لأنه يحاسب نفسه ، ولا يتفقد معاصيه ، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها ، كالذي يستغفر بلسانه ، ويسبح في الليل والنهار ، مثلا مئة مرة أو الفا ، ثم يغتاب المسلمين ، ويتكلم بما لايرضاه الله تعالى طول النهار ، ويلتفت الى ماورد في لفظ التسبيح ، ويغفل عما ورد في عقوبة الكذابين والنمامين والمنافقين . وذلك محض الغرور فأولى به حفظ لسانه من المعاصي أكثر من

تسبيحه ، فسبحان من صدنا عن الغيبـة (١) .

---

(١) وحسبنا هنا قوله: "مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد". وقوله صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله مايظن أن تبلغ مابلغت فيكتب الله له بها رضوانه الى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ، مايظن أن تبلغ مابلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة " .

– الفصل الخامس –

في بيان أصناف المغرورين وأقسام كل صنف

الصنف الأول : من المغرورين ، العلماء المغرورون فرق : فرقة لما أحكمت العلوم الشرعية والعقلية ، وتعمقوا فيها ، أهملوا تفقد الجوارح وحفظها من المعاصي ، وإلزامها الطاعات ، واغتروا بعلمهم ، وظنوا أنهم عند الله بمكان ، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله تعالى مثلهم ، بل يقبل في الخلق شفاعتهم ، ولا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم ، وهم مغرورون(١).

---

(١) وهؤلاء قد أصبحوا كثرا . فقلما يخلو عالم من هذا الغرور فيكون ممن رحمهم الله . فترى أحدهم يتعامل مع خلق الله بنظرة فوقية تزرع بغضه وكراهيته في قلوب =

فإنهم لو نظروا بعين بصيرة . علموا أن العلم علمان: علم معاملة . وعلم مكاشفة با لله تعالى وبصفاته ، فلا بد من علوم المعاملة لتقام الحكمة المقصودة ، وعلم المعاملة معرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة ومثالهم مثال طبيب غيره وهو عليل، قادر على طب نفسه ولم يفعل ، فلا ينفع الدواء بالوصف ، إنما ينفع الدواء من شربه بعد الحمية ، فهؤلاء قد غفلوا عن قوله تعالى : " قد أفلح

= الناس . بعكس الحبيب المصطفى صلى ا لله عليه وسلم الذي كان من شدة تواضعه لايعرف من بين أصحابه اذا جلس بينهم ، ومايزال هذا الغرور يتولد في نفوس طلاب العلم في غيبة التوجيه القلبي والروحي والتربية التي ربى بها النبي صلى ا لله عليه وسلم أصحابه الذين فازوا بتلك التربية على يد علماء التربية والتزكية والإحسان ...

من زكاها وقد خاب من دساها (١) " و لم يقل قد أفلح مـن تعلـم كيفيـة تزكيتهـا ، وعلـم وكتـب علمهـا وعلمهـا للناس .

وغفلوا عن قوله عليه الصلاة السـلام : " مـن ازداد علما و لم يـزدد هـدى، لم يـزدد مـن ا لله إلا بعـدا "(٢)

---

(١) سورة الشمس آيـة (٩ – ١٠) .

(٢) في المخطوطة وردت كلمـة (زهـدا) بـدلا مـن كلمـة (هدى) كما رواه الديلمي في سـند الفـردوس وحديـث علي بإسناد ضعيف ورواه ابـن حيـان في روضـة العقـلاء موقوفا على الحسن بلفظ من ازداد علمـا ثـم ازداد علـى الدنيا حرصا لم يزدد مـن ا لله إلا بعـدا ورواه أبـو الفتـح الأزدي في الضعفاء من حديث علي بلفظ من ازداد بـا لله علما ثم ازداد للدنيا حبا ازداد ا لله عليه غضبا .

وقوله صلى الله عليه وسلم: " شر الناس العلماء السوء"(١) .

---

(١) رواه الدارمي مرسلا بلفظ : (هلاك أمتي عالم فاجر وشر الشرار شرار العلماء) . وإنما جعلهم شر الشرار وشر الناس لمقدار الضرر الذي يلحقونه بالأمة . فزلة العالم زلة للعالم . لأنه في موقع القدوة والقيادة لمن حوله. وإنه ليمعن أحدهم في الشر حين يلتمس في ثنايا علمه مبررا لخروجه عن جادة الحق والصواب كما في قوله تعالى : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ...) .

وإنما جعل الأمة فرقا وأحزابا وشيعا هم أمثال أولئك من شرار العلماء الذين تملكهم حب الرئاسة والجاه والمنصب والحظوة عند السلاطين والملوك . والأمثلة في صفحات التاريخ يقصر عنها الحصر ويعجز دونها العد .

وقوله عليه الصلاة والسلام : " أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه " (١) وغير ذلك كثير ، وهؤلاء مغروررون نعوذ بالله تعالى وانما غلب عليهم حب الدنيا ، وحب أنفسهم وطلب الرحمة في العاجلة ، وظنوا أن علمهم ينجيهم في الآخرة ، من غير عمل .

وفرقة أخرى . أحكموا العلم والعمل الظاهر ، وتركوا المعاصي الظاهرة ، وغفلوا عن قلوبهم فلم يمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله ، كالكبر والرياء والحسد وطلب الرئاسة والعلو ، وإرادة السوء بالأقران وطلب الشهرة في البلاد والعباد ، وذلك غرور سببه غفلتهم عن قوله عليه الصلاة والسلام : " الرياء

---

(١) الطبراني مرفوعا .

شرك أصغر " (١) وقوله صلى الله عليه وسلم : "الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب " (٢)، وقوله صلى الله عليه وسلم : " حب المال والشرف

---

(١) وردت في المخطوطة (الأصغر) والصواب ماجاء أعلاه. ورواه الإمام أحمد بإسناد جيد وابن أبي الدنيا والبيهقي مرفوعا بلفظ : (إن أخوف ماأخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا : وما الشرك الاصغر ؟ قال : الرياء، يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا ، فانظروا هل تجدون عنهم جزاء).

(٢) رواه أبو داوود مرفوعا بلفظ : (إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب) .

ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل(١) وغفلوا عن قوله تعالى : " يوم لاينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى بقلب سليم ..."(٢) .

فغفلوا عن قلوبهم واشتغلوا بظواهرهم ، ومن لم يطهر قلبه لم تصح طاعته ، وهو كمريض ظهر به الجرب ، فأمر بالطلاء ، وشرب الدواء ، فاشتغل بالطلاء وترك الدواء ، فأزال مابظاهره و لم يزل مابباطنه، وأصل ما على ظاهره مما على باطنه ، ولايزال جربه أبدا مما في باطنه فلو أزال مافي باطنه استراح ظاهره ، وكذلك الخبائث إذا كانت كائنة في القلب(٣)

---

(١) هذا الحديث قال عنه الحافظ العراقي : لم أجده .

(٢) سورة الشعراء : (٨٨) .

(٣) هذه الخبائث القلبية هي من أشد العوامل فتكا في قلب المسلم . إذ أن الخبائث الظاهرة تزول حكما بالمخالطة =

يظهر أثرها على الجوارح .

= الدائمة لأهل الشرع والإيمان الظاهر . فلا يعقل أن يأتي أمرا منكرا ظاهرا وهو في صحبة أهل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكن يعقل في نفس الوقت أن يتحرك مرض خبيث قلبي بداخله ولا يفطن له أصحابه كما هو حال من تحرك الحسد بداخله وكما هو حال من تشوقت نفسه لحب المال والزعامة والشهرة وحسن الثناء من الناس عليه . كذلك هو حال من نفخ ابليس في نفسه فرآها في مرتقى يصعب على الناس نواله ، هذه الأمراض الخبيثة لايمكن معالجتها الا بإتيان أرباب الاختصاص بمعالجتها من أهل العلم بالقلوب وأدوائها ، فكما جرب الظاهر يلزمه طبيب الجسد الظاهر ليداويه وكذلك جرب الباطن لايذهبه إلا طلب أطباء القلوب والتزام دوائهم الذي هو من عين المعين المحمدي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام .

وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع ، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم مكتفون عنها ، فإنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك ، وإنما يبتلي به العوام ، دون من بلغ مبلغهم في العلم فإنهم أبلغ عند الله من أن يبتليهم ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر وطلب العلو والشرف ، والغرور. ظنوا أن ذلك ليس بكبر(١) وإنما هو عز الدين

---

(١) وهؤلاء من الذين انقلب علمهم وبالا عليهم وأضلهم الله على علم وهؤلاء عليهم كفل من كل مخالفة يرتكبها العامة وقد التمسوا لها تأويلا من تأويلاتهم الباطلة . وقد عانى فيها سيدنا علي ابن أبي طالب حتى قال: (إنها كلمة حق أريد بها باطل) وهؤلاء لم يكن بينهم وبين سبيل الحق سوى عقبة من مخالفة الهوى والنفس والاعتراف والإقرار لقوله صلى الله عليه وسلم (كل =

وإظهار شرف العلم ونصرة دين ا لله ، وغفلواعن فـرح إبليس بهم ، وغفلوا عـن النبي صلـى ا لله عليـه وسـلم وعن نصرته للديـن بمـا كـانت وعـن إرغامـه للكـافرين كيف كان ، وعن تواضـع الصحابـة وتذللهـم وفقرهـم ومسكنتهم حتى عوتب عمر رضي ا لله عنه عند قدومه الشام فقال " إنا قـوم أعزنـا ا لله بالإسـلام فـلا نطلـب العـز في غـيره " . فمـن هـذا الغـرور يطلـب عـز الديـن بالثياب الرقيقـة ويزعـم أنـه يطلـب عـز العلـم وشـرف الدين .

ومهما أطلق اللسان بالحسـد في أقرانـه أو فيمـن رد عليه شيئا من كلامه ، لم يظـن بنفسـه أن ذلـك حسـد وحينئذ يقول إنما هو غضب للحق ، ورد علـى المبـطل

= ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) .

في عداوته فيما رد عليه ، وهو مغرور ، فإنه لو طعن على غيره من العلماء ، من أقرانه ربما لم يغضب بل ربما يفرح ، وإن أظهر الغضب عند الناس فقلبه ربما يحبه(١). وربما يظهر العلم ، ويقول غرضي أن أفيد الخلق، وهو به مراء (٢) .

---

(١) الهاء عائدة هنا على فعل الطعن الذي ينال من غيره من العلماء وهذا من أمراض الحسد البغيض بين العلماء .

(٢) ومن هذا الصنف أولئك الذين ورد الحديث فيهم فكانوا من أول الناس الذين تسعر بهم النار فيؤتى بأحدهم يوم القيامة كما ورد (ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمة فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال: تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : عالم وقرآت القرآن ليقال : هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على =

لأنه لو كان غرضه صلاح الخلق لأحب صلاحهم على يد غيره ممن هو مثله أو فوقه أو دونه وربما يدخل على السلاطين ويتودد إليهم ويثني عليهم . فإذا سئل عن ذلك . قال : إنما غرضي أن أنفع المسلمين وأدفع عنهم الضرر، فهو مغرور (١) ولو كان غرضه ذلك ، لفرح به إذا جرى على يد غيره ، ولو رأى غيره ممن هو مثله عند السلطان يشفع في أحد يغضب ، وربما

= وجهه حتى ألقي في النار ...) . إلى آخر الحديث الذي رواه مسلم والترمذي والنسائي .

(١) وذلك لما رواه البخاري : عن ابن عمر رضي الله عنهما أن ناسا قالوا : إنا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف ماتتكلم إذا خرجنا من عندهم ؟ قال ابن عمر رضي الله عنهما : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يأخذ من أموالهم (١) فإن خطر له أنه حرام ، قال له الشيطان هذا مال بلا مالك ، وهو لمصالح المسلمين ، وأنت إمام المسلمين وعالمهم بلك قوام الدين ، فيغتر بهذا التلبيس في ثلاثة أمور : أحدها في أنه مال لامالك له . والثاني : أنه من مصالح المسلمين ، والثالث أنه إمام ولا يكون إماما إلا من أعرض عن الدنيا كالأنبياء والصحابة ، ومثله كما قال المسيح عيسى عليه السلام:

---

(١) وهؤلاء لايجدون ريح الجنة وإن ريحها لتشم من مسيرة أعوام وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم:(عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من تعلم علما مما يبتغي به وجه الله عز وجل لايتعلمه إلا ليصيب به غرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة)أي ريحها.

العالم السوء (١) كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص الى الزرع .

---

(١) وهذا الصنف من علماء السوء لايخلو منهم زمان ولا مكان ولكنهم يتراوحون وفرة وقلة لقوله صلى الله عليه وسلم في حديثه عن أفضل القرون . فجعل قرنه أفضل القرون ثم الذي يليه . إلى آخر الحديث . فهذا شيء مسلم به ولكن الذي لاينبغي التسليم به هو ذلك التوجه الهادف للطعن في علماء المسلمين لوجود هذه الطائفة المتطفلة من علماء السوء ، وهذا يفتح الباب للعامة للإفلات من كل قيد يمسك ألسنتهم عن الخوض في سير العلماء الصالحين وفي أعراضهم ونزاهتهم وتقواهم وهذا مدخل عظيم لإبليس ولأعداء الإسلام يلجون منه إلى داخل المجتمع الإسلامي ويوجهون طعناتهم إلى مقتله وليس لأي مسلم أي عذر عند الله وهو يأتي ذلك وقد غفل عن قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم =

وأصناف غرور أهل العلم كثيرة ، ومايفسد هؤلاء أكثر مما يصلحون . وفرقة أخرى ، أحكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظواهر المعاصي ، وتفقدوا أخلاق النفس وصفاء القلب من الرياء ، والحسد والكبر ، والحقد وطلب العلو ، وجاهدوا أنفسهم في التبري منها ، وقلعوا من القلب منابتها الجلية القوية . ولكنهم مغرورون إذ بقي في زوايا القلب من خبايا مكائد الشيطان وخبايا خداع النفس .

= فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين).

- مصادر التحقيق والتعليـــق -

١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم

محمد فؤاد عبد الباقـــي

٢- تفسير ابن كثير ١ / ٤ ابن كثير

٣- الجامع الصغير ١ / ٢ السيوطي

٤- الترغيب والترهيب ١/٤ المنذري

٥- إحياء علوم الدين١/٥ الغزالـــي

٦- لواقح الأنوار القدسية الشعراني

٧- جوهرة التوحيد شرح الصاوي

- انتهت الرسالة -

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة